الحلقة الثالثة والعشرون

الدروس المستفادة من فتح مكة

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون : أيتها الأخوات المؤمنات :

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

وبعد : ففي الحلقتين السابقتين كنا في ذكري الانتصار الكبير ، ذكرى فتح مكة ، الذي به انطلقت دعوة الإسلام فتية قوية ، بعد أن زال بهذا الفتح ما كان في طريقها من عقبات، وبعد أن تحطمت صخور المقاومة ، العنيدة من جانب الأعداء .

وقد عرفنا سبب الفتح والنتائج الكبيرة التي ترتبت على ذلك ، وفى هذه الحلقة التي معنا ، سنستخلص الدروس المستفادة من هذا الفتح الأعظم ، ومن بين تلك الدروس بل أعظمها ، هذا الموقف المحمدي الرائع ، موقف العفو عند المقدرة، موقف النبل والسمو ، موقف الكمال الإنساني ، فها هو ذا - صلوات الله وسلامه عليه - ، قد تمكن كل التمكن من أعدائه ، وصاروا جميعا في قبضته ، وأصابع الاتهام تشير إليهم بالإدانة وسوء المصير ، والرسول صلوات الله وسلامه عليه والحال هذه لديه القدرة على إنزال أشد العقوبات عليهم ، وتوقيع أقسى العذاب ضدهم ، والقيام بعمل حاسم جزاء لهم على ما قاموا به من أفعال شريرة .

وللرسول الحق في هذا إن أراد ، لأن هؤلاء الأعداء قدموا إليه وإلى المسلمين ورسالة الإسلام أبشع ألوان الإساءة ، وبذلوا كل ما في وسعهم لمحاربة الدعوة الإسلامية ، وقتلوا بعض المسلمين وعذبوا كثيراً منهم ، لا لذنب اقترفوه ، ولا لجريمة ارتكبوها ، وإنما لأن قلوبهم استنارت وتجاوبت مع دعوة الإسلام ، واعتنقت عن اقتناع عقيدة الإيمان ،

كما أن الكفار تآمروا بليل على قتل الرسول والقضاء على رسالته ، وإراقة دمه بين القبائل كلها ، وعندئذ يرضى أهله بالدية، كل ذلك وغيره من أعمال شائنة ، يعطى الدليل للرسول الحق على إدانتهم والقضاء عليهم ، والمبرر القوى للانتقام منهم .

ولكن ماذا كان موقف الرسول حيال أولئك الأعداء ؟ هل هو حكم عليهم بالإعدام ؟ وهل أنهى حياتهم على أسوأ صورة ؟ إنه لم يفعل شيئا من ذلك كله ، وإنما كان موقفه على النقيض من ذلك . إنه موقف يتفق مع سمو خلقه ، وتصرف يتلاءم وما تحلى به من فضائل ، حيث أصدر أمره الكريم بالعفو عنهم ، وعدم التعرض بسوء لهم ، وحسن التعامل معهم ، وقال لهم قوله المأثور ، الذي دوّنه التاريخ بأحرف من نور ، ومداد عطري عبق ، قال لهم : " اذهبوا فأنتم الطلقاء " وهذه العبارة المحمدية لا تزال ذات رنين في سمع الدنيا ، ولا تزال خالدة معطرة الكون بأريجها ، ولقد أثر هذا الموقف النبوي في قلوب من عفا عنهم ، ونتيجة لهذا صار أعداء الأمس أحباء الإسلام اليوم، ولمسوا عن قرب وتجربة ما يتمتع به هذا الرسول من خلق سام كل السمو ، وعفو كريم عظيم يتوج رأسه ، وما ينطوي عليه هذا الدين العظيم من أخلاق عالية ، ومبادئ سامية ، وصفح منقطع النظير ، وتسامح كبير .. ولهذا سارعوا إلى اعتناقها، وتسابقوا في الانضواء إلى هذه الدعوة قوة جديدة تشد أزرها ، وتدافع عنها ، وتبذل الغالي والنفيس في سبيل قوتها، وتخطى كل الحواجز التي قد تقف في طريقها، أو تعطل مسيرتها الناهضة.

إنه لدرس رائع من دروس هذا الفتح المبارك ، وإنه لخلق محمدي عال فاضل ، يدل على شخصية كبيرة ، استمدت تربيتها من السماء ، وتلقتها عن رب خالق الكون هذا هو الدرس الأول .

أما الدرس الثاني : فيستنبط من تلك الوصية النبوية للجيش الإسلامي ، التي تتضمن عدم التعدي على أحد من الكفار ، مادام لم يحدث منهم عدوان على المسلمين ، وعدم رفع السيف

في وجه أحد منهم مادامت سيوفهم راقدة في أغمادها، وبالإضافة إلى ذلك ، تصرف الرسول - صلوات الله وسلامه عليه - مع سعد بن عبادة حين قال :

- اليوم يوم الملحمة ، اليوم تستحل الحرمة ... إنه - عليه السلام - حين سمع سعدا يقول هذا الكلام ، عزله عن عمله القيادي ، وأقصاه عن قيادة الكتيبة التي أوكلت إليه ، وأخذ عليه السلام - الراية منه وأعطاها لعلى - كرم الله وجهه - ولم يرض عما قاله سعد وما صدر منه ، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على نفس كبيرة ، تحلت بأرق الشمائل ، وأنبل الخلال ، وهو - عليه السلام - بهذا العمل وتلك الوصية ، لا يحب البدء بالعدوان، ولا تقبل نفسه أن يكون جيش المسلمين بعيدا عن المحاسن الإسلامية والخلال الإنسانية .. يغرسها الرسول في نفوس المسلمين ، ويعمقها في قلوبهم ، ويريد لهم أن يتعاملوا بها حتى مع أعدائهم .

تلك هي الأخلاق الإسلامية الفاضلة ، التي جاء بها رسول الإسلام والتي تدل على أن الإسلام ليس عقيدة وعبادة فحسب ، وإنما هو دين عام وشامل ، وانه يحتضن الجوانب الإنسانية ، والقيم والمثل والمبادئ ... ويظهر لنا من خلال فتح مكة دروس سوى ما ذكر ، وهو انتصار الحق وأهل الحق ، وانهزام الباطل وأهل الباطل ، فها هم أولاء المسلمون ، قد نزحوا عن مكة وأخرجوا منها ، وهاجروا إلى أرض أخرى غير أرضهم ، وأجبروا على ترك بلادهم وهى احب البلاد إليهم، وبعدوا عنها رغما عنهم ، وفروا بعقيدتهم وإيمانهم ، وخرجوا من البقعة التي نشأوا فيها وتربوا ، لأن قريشا تتعقبهم وتضمر السوء لهم، وتنوى إنزال العقوبات عليهم، إنهم هاجروا تحت وطأة تلك الظروف القاسية ، ولكن لم يمض عليهم سوى سنوات قليلة في دار هجرتهم ، استطاعوا بعدها أن يرجعوا إلى بلادهم ، ولم يكن رجوعهم مصحوبا بالحماية ، وإنما كان مقرونا بالعزة والكرامة ، والنصر والظفر ، مصحوبا بالفتح والتطهير ، تطهير الكعبة من الدنس، وتنظيفها من الدرن .

أيها الإخوة والأخوات : تلك هي بعض الدروس النافعة ، ولعلى وفقت في استنباط تلك الدروس ، وإني لأرجو الله سبحانه، أن يفتح مغاليق قلوبنا، ويفتح علينا فتوح العارفين به ، وأن يوفقنا إلى الأخذ بوسائل فتح مغاليق القلوب ، والتي تتمثل في ذكره وعبادته ، وتسبيحه وحمده، اللهم آمين .